# الباب الثاني:

# مصادر فكرية للعمل العمراني في الإسلام

**العمل:**

كل مجهود واع يبذله الإنسان، بدنيًّا أو عقليًّا لاستغلال هذه الموارد لمنفعته؛ سواء أكان العامل يعمل لنفسه أو لغيره بأجر، أيًّا كان هذا الغير – فردًا أو مؤسسةً أو حكومةً – وسواء أكان يعمل منفردًا أم يعمل شريكًا لغيره، شريكًا بجهده وخبرته، وسواء أكان عمله في مجال الزراعة أو الصناعة أو التجارة أو غيرهما من الحرف؛ عالية أو دانية، يسيرة أم شاقة، تدر الوفير من الدخل أم لم تدر إلا القليل أو الأقل من القليل.

# الفصل الأول:

# العرب قبل الإسلام

في تلك البقعة التي اصطلح الناس على تسميتها جزيرة العرب عاشت أمة جاهلية، فكانت في جملتها أذل الناس ذلًّا وأشقاهم عيشًا وأبينهم ضلالةً وأعراهم جلودًا، وأجوعهم بطونًا معكوفين على رأس جحر بين الأسدين:

فارس والروم، تجتهلهم الحمية، فيثورون لأقل الأسباب دعوةً إلى ثورة يحتدبون حتى ما تضع الحرب أوزارها إلا ليستأنفوا أخرى أذكى نارًا وأقوى استعارًا، وتستنفرهم حاجة العيش فينفرون إلى التماس الرزق من أخس وجوهه؛ لا يبالون بما أتوا ما داموا يشبعون غرائز غرسها فيهم شظف العيش، ونشأهم عليها جدب الصحراء، وتتيقظ فيهم غريزة الخضوع التي فُطِر عليها الناس تقسرهم على البحث عن إله له من القدرة ما ليس لهم؛ فيقومون إلى الأحجار ينحتونها أصنامًا يسبحون بحمدها لا يصدهم عن ذلك ما بها – من قماءة وذلة –يكاد يُهْتَف بهم: ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ﴾.

والله ما في بلادهم يومئذ من شيء يُحْسَدون عليه، من عاش منهم عاش شقيًّا ومن مات تردى في النار.

والله ما نعلم أمةً في حاضر الأرض كانت أصغر حظًّا وأدق شأنًا منهم حتى جاء القرآن فنقلهم من الذلة إلى العزة ومن الشقاء إلى السعادة، بل من الموت إلى الحياة، ورفعهم من أمة محقورة لا تكاد تحتفل بها أمة ولا يأبه لها شعب إلى سادة في الأرض وملوك على رقاب الناس.

سكن العرب شبه جزيرتهم الجافة القاحلة التي لا تصلح للزرع ولا للاستقرار ولا تلائم الحضارة، ومن ثم كان أهلها بدوًا رحلًا يتتبعون مساقط الغيث ومنابت الكلأ والعشب ويعيشون تحت الخيام ويولعون بصهوات الخيل، ويطعمون من لحم الإبل والأنعام ويشربون من ألبانها ويكتسون من أصوافها ...

وهذه الحياة اتسمت بالسذاجة والبساطة، وعُرِفت بأنها حياة البداوة، أما قريش فكانت متحضرةً لمكانتها الدينية ومنزلتها الاجتماعية، وغناها من الإيلاف وترحلها للتجارة، وقدوم العرب إليها للحج والأسواق وكذلك القحطانيون متحضرون لحظ ديارهم من الخصب ووفرة الغلات والثمار.

ولقد اعتمدوا الغارة والحرب والقتال أسلوبًا لحياتهم لمكان العصبية منه؛ فكانوا لا يصبرون على ضيم ولا يقيمون على هوان، وقد جر عليهم ذلك فساد القلوب ودوام الحروب وتعدد الغارات ونزوة العصبيات، وما حروب داحس والغبراء، وحرب البسوس، ويوم حليمة إلا صفحات مخضبة بالدماء، وقد احتفلوا بالذكر وكرهوا الإناث ومارسوا الوأد إما خوف العار أو الفقر، ولم تكن كل القبائل تفعله، ولم تكن لهم مدنية اجتماعية – بل نزاعات فردية أو قبلية، وكان مجتمعهم مجتمع القبلية في بعض النواحي حضارات عربية كحضارة المناذرة بالحيرة والغساسنة بالشام والسبئيين باليمن[1].

**التعويض النفسي:**

رُوِي أن الشاعر الجاهلي الفاتك الذي يُدْعَى «تأبط شرًّا» والذي كان اسمه يثير الفزع والرعب في قلوب الناس – هذا الشاعر قد جاءه من يُدْعَى أبا وهب، وكان أبو وهب هذا معجبًا بتأبط شرًّا؛ يريد أن يكون مثل شهرته، ولكن أنى له ذلك وهو ضعيف لا حيلة له؟

وفي عالم الأحلام متسع لمن يضيق بهم الواقع في هذه الحياة، وشاءت أحلام الرجل أن يستعير اسم تأبط شرًّا، فيسمي به نفسه، ويأخذ تأبط اسم أبي وهب هذا في مقابل بضعة من الإبل حتى يقع في وهم الرجل أن الأمر جد وأنه عقد صفقةً رابحةً.

وجاء الرجل إلى تأبط شرًّا يعرض عليه هذا العرض العجيب فضحك تأبط شرًّا في سره، وأجاب الرجل إلى ما طلب، وقال له: أنت منذ الآن تأبط شرًّا وأنا أبو وهب، وهات الإبل ثمنًا لهذه الصفقة.

ومضى الرجل فرحًا مزهوًّا وبدا له أنه وُلِد ميلادًا جديدًا في الحياة وأنه تأبط شرًّا بلحمه ودمه.

وأخذ تأبط شرًّا ينظر إلى صاحبه وهو يختال عجبًا ويلوح بسيفه في الهواء متوعدًا

---

١- انظر: قيم حضارية ١/ ٢٤٦١، دار المنار، القاهرة، ١٩٨٤.

الناس بسطوات وغارات تنخلع لها القلوب، ويتحدث بأحداثها الركبان، ويتحرك شيطان الشعر في صدر الشاعر الفاتك فيقول مصورًا هذه الواقعة ناعيًا على صاحبه أبي وهب صفقته الخاسرة:

**ألا هل أتى الحسناء أن حليلهـــا ... تأبط شرًا واكتنيت أبا وهـــــب**
**هبيه تسمى اسمي وسُمِّيت باسمه ... فأين له صبري على فادح الخطب**
**وأين له عزم كعزمي وهمتـــــي ... وأين له في كل فاجعة قلبـــــي**[1]

## شعر البادية: أغراضه وفنونه:

نظم العرب الشعر في كل ما أدركته حواسهم وخطر على قلوبهم من فنونه وأغراضه الكثيرة كالنسيب ويُسَمى (التشبيب والتغزل) وطريقته عند الجاهلية تكون بذكر النساء ومحاسنهن وشرح أحوالهن، وكان له عندهم المقام الأول من بين أغراض الشعر، حتى لو انضم إليه غرض آخر قُدِّم النسيب عليه، وافْتُتِح به القصيد لما فيه من كل اجتماع إنساني. والبدو أكثر الناس حبًّا لفراغهم[2].

## عودة العرب إلى بعض العادات السابقة على الإسلام:

أصبح الرجل في هذا العقد مدفوعًا إلى العمل، مدفوعًا إلى العمل إلى المكرمات والبطولات وإلى الجود والمواساة بدافع من السمعة والرياء، والظهور في القبائل والمجامع والتفوق على الأقران، بعد ما كان مدفوعًا إلى ذلك بدافع من الأجر وثواب الآخرة ورضا من الله.

وقصة يرويها أبو الفرج الأصبهاني في الأغاني تمثل هذا التطور الخطير وهذه الروح الجاهلية التي كانت تخامر رؤساء القبائل وأشراف العرب في ذلك العهد خير تمثيل قال:

(حدث ابن عايش قال: كان حوشب بن يزيد بن الحارث ابن رؤيم الشيباني وعكرمة بن ربعي يتنازعان الشرف، ويتباريان في إطعام ونحر الجزر، في عسكر مصعب، وكان حوشب يغلب عكرمة لسعة يده وقال:

---

١- انظر: اليهودية في القرآن، أ/ عبد الكريم الخطيب، ص ٤٩-٥٠، دار الشروق، الثانية، ١٩٨١/ ١٤٠١هـ.

٢- انظر: جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، السيد أحمد الهاشمي، ٢/ ٢٥، ط مكتبة الثقافة الدينية، الطبعة السادسة والعشرون، ١٩٨٥م/ ١٩٦٥.

قدم عبد العزيز بن يسار مولى محيريز الفقيه بسفائن دقيق، فأتاه عكرمة فقال له: الله الله في، قد كاد حوشب أن يستعليني ويغلبني، فبعني هذا الدقيق بتأخير ولك مثل ثمنه ربحًا، فقال:

خذه، وأعطاه إياه، فدفعه إلى قومه وفرقه بينهم وأمرهم بعجنه كله فعجنوه كله ثم جاء بالعجين كله فجمعه بهوة عظيمة وأمر به فغُطِّي بالحشيش وجاء برمكة (الفرس تُتَّخذ للنسل) فقربوها إلى فرس حوشب حتى طلبها وأفلت ثم ركضوها بين يديه وهو يتبعها حتى ألقوها في ذلك العجين وتبعها الفرس حتى تورطا في العجين وبقيا فيه جميعًا، وخرج قوم عكرمة يصيحون في المعسكر يا معشر المسلمين فرس حوشب قد غرق في خمير عكرمة، فخرج الناس تعجبًا من ذلك أن تكون خميرة يغرق فيها فرس فلم يبق في المعسكر أحد إلا ركب ينظر، وجاؤوا إلى الفرس وهو غريق في العجين ما يبين منه إلا رأسه وعنقه، فما أُخْرِج إلا بالعمد والحبال وغلب عليه عكرمة وافْتُضِح حوشب)[1].

**تعليق:** هذه القصة وإن كانت فرديةً إلا أنها تصور الغاية التي وصل إليها تأثير الجاهلية ونفوذها والتفكير الجاهلي في المجتمع الأموي الإسلامي.

تصور ميسونة بنت مجدل الكلابية حياة البداوة في لهجة مؤثرة صادقة فتقول:

**لبيت تخفق الأرواح فيـــــه ... أحب إلي من قصر منيـــف**
**أحب وكلب ينبح الطراق عني ... إلي من قـــط ألـــــوف**
**ولبس عباءة وتقر عينـــــي ... أحب إلي من لبس الشفـــوف**
**وخرق من بني عمي نحيـــف ... أحب إلي من علج عنيـــــف**
**وأصوات الرياح بكل فـــــج ... أحب إلي من نقر الدفـــوف**
**وأكل كسيرة في قصر بيتـــي ... أحب إلى من أكل الرغيـــف**
**فما أبغي سوى وطني بديـــلًا ... وحسبي ذاك من وطن شريف**[2]

فحياة البداوة بمظاهرها البسيطة أحب إليها من حياة الحضارة ذات الترف والنعيم.

---

١- الشيخ أبو الحسن الندوي في رجال الفكر والدعوة ١/ ٢٧، ٢٨، ط دار القلم عند حديثه عن النزعات الجاهلية في العهد الأموي.

٢- انظر: قيم حضارية للشيخ توفيق سبع، ص ٢٢، ط دار المنار.

يقول الشيخ الغزالي: كنت أسير في الشارع فوجدت العمال يحفرونه على مدى بعيد كبير ووجدت أنابيب هائلة تُمَد بلباقة وقدرة لتكون شبكة الصرف الصحي في هذا الحي الكبير... وعرفت أن معونةً إنجليزيةً مشكورةً قامت بالصناعة والتركيب، ومددت يدي إلى إحدى الصحف كي أغالب السآمة التي تتسلل إلى أعصابي فوجدت في الصفحة الأولى خبرين: يقول أولهما: ١٥٠ مليون دولار منحة من إيطاليا لمصر، ويقول الآخر: مساعدات غذائية أوروبية لمصر قيمتها ١٠ ملايين دولار لمناسبة عودة ٤٠٠ ألف عامل فروا من العراق والكويت في الأحداث الأخيرة.

ومسلسل الأخذ لا ينتهي، وستبقى الأكف مفتوحةً لتلقي القروض والهبات حتى نستفيق من الغيبوبة التي دانت علينا.

ثم يقول: إننا لم ننحرف عن رسالتنا الإسلامية فقط، بل نسينا انتماءنا إلى آدم الذي علمه الله الأسماء كلها، وأهبطه إلى الأرض كي يعمرها بذكائه ونشاطه أو بكد يمينه وعرق جبينه[1].

وعن تفسير قوله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ يقول الشيخ محمد الغزالي يوصيه مرةً أخرى بالدأب على الجهاد والإقبال على الله فإذا انتهى من واجب نهض إلى غيره، لا مكان في حياته لفتور[2].

**الإنسان المذموم في القرآن:**

إنسان سلبي عاجز لا يتكلم بحق، ولا يقدر على شيء ولا يعطي، يستهلك ولا ينتج كل على مولاه، وعالة على غيره يُحمل ولا يحمل مُعَطل الطاقات، أينما ذهب لا يحقق خيرًا ولا يفيد أحدًا فهذا مثل السوء.

**وفي مقابلة الإنسان المحمود:**

الإنسان الإيجابي الفاعل الصالح في نفسه المصلح لغيره فهو ينطق بالحق، ويأمر بالعدل، وهو في الوقت نفسه على صراط مستقيم منهج بين موصل إلى الهدف لا ينحرف يمنةً ولا

---

١- تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل، الغزالي ص٢٩، دار الشروق، الثانية، ١٤١١ه/ ١٩٩١م.

٢- التفسير الموضوعي ٣/ ٢٢٣، ط دار الشروق، الأولى، ١٩٩٥.

يسرةً، فهو حين يأمر بالعدل يطبق العدل على نفسه، وبهذا يكون حقًّا على صراط مستقيم[1].

**نوح عليه السلام:**

ذُكِر نوح عليه السلاح في القرآن في ثلاثة وأربعين موضعًا موزعةً على ثمان وعشرين سورةً، إحدى وعشرون منها مكية وسبع مدنية.

وقد فصلت قصته في سورة (القمر والأعراف والشعراء وهود ونوح والمؤمنون)[2].

**إسرائيليات في سفينة نوح:**

من الإسرائيليات التي اشتملت عليها بعض كتب التفسير كتفسير ابن جرير الطبري والدر المنثور وغيرهما.

**ما رُوِي في سفينة نوح عليه السلام:**

فقد أحاطوها بهالة من العجائب والغرائب من أي خشب صُنِعت؟ وما طولها؟ وما عرضها؟ وما ارتفاعها؟ وكيف كانت طبقاتها؟ وذكروا خرافات في خلقة بعض الحيوانات من الأخرى، وقد بلغ ببعض الرواة أنهم نسبوا بعض هذا إلى النبي (ﷺ).

أخرج ابن جرير عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال: الحواريون لعيسى بن مريم – عليهما السلام – لو بعثت لنا رجلًا شهد السفينة، فحدثنا عنها، فانطلق بهم حتى انتهى إلى كُثَيب من تراب فأخذ كفًّا من ذلك التراب، قال: أتدرون ما هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: هذا كعب حام بن نوح، فضرب الكثيب بعصاه قال: قم بإذن الله، فإذا هو قائم ينفض التراب عن رأسه قد شاب، قال له عيسى – عليه السلام – : هكذا هلكت؟ قال: لا؛ مت وأنا شاب ولكنني ظننت أنها الساعة قد قامت فمن شبت. قال: حدثنا عن سفينة نوح. قال: كان طولها ألف ذراع ومائتي ذراع وعرضها ستمائة ذراع، كانت ثلاث طبقات؛ فطبقة فيها للدواب والوحش، وطبقة فيها الإنس، وطبقة فيها الطير، فلما كثر أرواث الدواب أوحى الله إلى نوح أن اغمز ذنب الفيل فغمزه، فوقع منه خنزير وخنزيرة، فأقبلا على الروث، فلما

---

١- انظر: الإسلام حضارة الغد، القرضاوي، ص١٨٤، ط وهبة، الأولى، سنة ١٤١٦.

٢- انظر: منهجه في الدعوة: في الدعاة إلى الله في القرآن الكريم ومناهجهم، د. محمد طلعت أبو صبر، ص٣٦، وما بعدها، ط المطبعة العربية الحديثة، ١٤٠٦هـ.

وفقه الدعوة من حياة موسى، د. محمود محمد عمارة، ط التوفيقية، بدون.

وقع الفأر يخرب السفينة بقرضه أوحى الله أن اضرب بين عيني الأسد؛ فخرج من منخره سنور وسنورة فأقبلا على الفأر فأكلاه.

وفي رواية أخرى: أن الأسد عطس، فخرج من منخره سنوران ذكر وأنثى فأكلا الفأر، وأن الفيل عطس فخرج من منخره خنزيران ذكر وأنثى؛ فأكلا أذى السفينة[1] ... إلخ الخرافات والأباطيل التي يرددها العوام والعجائز.

**مريم عليها السلام:**

يقول الدكتور محمد سيد طنطاوي تعليقًا على هذه الآية: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا﴾ سورة مريم: ٢٥.

أخذ العلماء من هذه الآية الكريمة أن مباشرة الأسباب في طلب الرزق أمر واجب، وأن ذلك لا ينافي التوكل على الله لأن المؤمن يتعاطى الأسباب امتثالًا لأمر ربه مع علمه ويقينه أنه لا يقع في ملكه سبحانه إلا ما يشاؤه ويريده.

وهنا قد أمر الله تعالى – مريم – على لسان مولودها بأن تهز النخلة ليتساقط لها الرطب مع قدرته – سبحانه – على إنزال الرطب إليها من غير هز أو تحريك، ورحم الله القائل:

**أ– ألم أن الله قـــال لمريـــم وهزي إليك الجذع يساقط الرطب**

**ب– ولو شاء أن تجنيه من غير هزة جنته ولكن كل شيء له سبـــب**[2]

**داود عليه السلام:**

قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ صَنۡعَةَ لَبُوسٖ لَّكُمۡ﴾ الآية ٨ من سورة الأنبياء.

وهذه الآية أصل في اتخاذ الصنائع والأسباب وهو قول أهل العقول والألباب، لا قول الجهلة الأغبياء القائلين بأن ذلك إنما شرع للضعفاء.

فالسبب سنة الله في خلقه فمن طعن في ذلك فقد طعن في الكتاب والسنة، وقد أخبر

---

١- انظر: تفسير ابن جرير الطبري: ١٢/ ٢١/ ٢٩، والدر المنثور: ٣/ ٢٢٧-٢٣٥.

وانظر: الإسرائيليات والموضوعات، د. محمد محمد أبو شهبة، ص٢١٧، ط مكتبة السنة، الطبعة الرابعة، ١٤٠٨هـ.

٢- د. محمد سيد طنطاوي في القصة في القرآن الكريم، ص٧٤٣، ط دار المعارف.

الله – تعالى – عن نبيه داود عليه السلام أنه كان يصنع الدروع، وكان أيضًا يصنع الخوص، وكان يأكل من عمل يده، وكان آدم حراثًا، وكان نوح نجارًا، ولقمان خياطًا، وطالوت دباغًا.

فالصنعة يكف بها الإنسان نفسه عن الناس ويدفع بها عن نفسه الضرر والبأس.

وفي الحديث:

«**إن الله يحب المؤمن المحترف المتعفف، ويبغض السائل الملحف**»[1] .

**سليمان عليه السلام:**

﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ....﴾ سورة الأنبياء: ٧٩.

أي ففهمناها سليمان الحكم الأنسب والأوفق في هذه المسألة أو القضية وذلك لأن داود – كما يقول العلماء – قد اتجه في حكمه إلى مجرد التعويض لصاحب الحرث وهذا عدل فحسب.

أما حكم سليمان فقد تضمن مع العدل البناء والتعمير وجعل العدل دافعًا إلى البناء والتعمير وهذا هو العدل الحي الإيجابي في صورته البانية الدافعة، وهو فتح من الله وإلهام يهبه من يشاء من عباده[2].

**عن حضارة داود عليه السلام يقول الشيخ/ توفيق سبع:**

(عاشت هذه الحضارة في فلسطين وما حولها – فقد ثبت أن نبي الله داود استولى على بيت المقدس سنة ألف قبل الميلاد واتخذه عاصمةً ... وأراد أن يبني هيكلًا للعبادة، فمنعه الرب لأنه غمس يده في الدماء، ثم جاء سليمان بعد والده داود فأتم دورة هذه الحضارة التي اكتملت حقًّا على يديه).

وتشابكت حضارة داود مع حضارة ابنه سليمان – عليهما السلام وكلاهما نبي من أنبياء بني إسرائيل لأنها قامتا على أساس رباني، وتدخل فيهما عنصر الإعجاز السماوي مما جعل لهما طابعًا فريدًا بين الحضارات.

**وعن ملامحها يقول:**

(١) إنها تقوم على الجهاد في سبيل الله، فداود – عليه السلام – منذ الصبا كان

١- القرطبي في تفسيره، ١١/ ٢٢١.

٢- القصة في القرآن الكريم، د. محمد سيد طنطاوي، ص٦٢٢، دار المعارف، ط الأولى، ١٩٩٥م/ ١٤١٦هـ.

شجاعًا محاربًا هو وإخوته وأبوه وإنه قتل جالوت الطاغية ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾.

(٢) إنها إعجاز إلهي قد توفر لها ما لم يتوفر لغيرها من الخوارق.

(٣) إنها حضارة تستثمر ألوانًا من المعارف وفنونًا من الخوارق.

(٤) إنها حضارة صناعية تتخذ من العمل وسيلةً لبناء الحياة وقد انصهر داود وشعبه في جو العمل بحيث صار العمل في تلك الحضارة قيمة عليا، وكان داود قدوة شعبه، وكان يأكل من عمل يده.

(٥) إن هذه الحضارة كانت قوية البنيان ثابتةً الأركان بدليل قوله تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾ ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾ أي قويناه.

(٦) إنها حضارة ذات قيادة حكيمة تفصل في الأمور بنور الله وتقضي بين الناس بالحق.

(٧) إنها حضارة ذات دستور منزل من السماء تمضي على سنن منهج رباني، قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾.[1]

**هناك روايات كثيرة مرفوعة وموقوفة**؛ نقلها السادة المفسرون في كتبهم بشأن خطيئة داود عليه السلام، وبعض هذه الروايات ينسب ارتكاب الكبيرة إلى نبي الله داود عليه السلام مع منافاتهما لعصمة أنبياء الله تعالى.

يقول الشيخ توفيق محمد سبع تعليقًا على حضارة سيدنا سليمان عليه السلام: «امتدت مملكة سليمان من خليج أيلة وفلسطين وشرق الأردن ولبنان وسوريا إلى شطر الفرات».

**ويقول عن ملامح هذه الحضارة السليمانية في ضوء آيات القرآن الكريم:**

(١) إن هذه الحضارة قد تم إنجازها بقوى مذهلة متنوعة من جن وإنس وطير وكل واحد من هذه العناصر له مكانة في بناء الهيكل الحضاري.

(٢) إن الله جلت قدرته قد طوع لها من الكائنات وسخر لها من عناصر الكون وذلل لها من النواميس ما جعل كل شيء ميسرًا سهلًا في يد سليمان.

(٣) إن هذه الحضارة رغم ما تهيأ لها من وسائل الإعجاز لم يقعد أصحابها عن العمل وإنما استثمروا الكائنات واستفادوا من الفرص المتاحة وتحركوا بالعمل في كل

---

١- انظر: قيم حضارية في اقلرآن الكريم، الشيخ توفيق سبع، ١/ ١٦٨ وما بعدها بتصرف واختصار.

اتجاه، فهم لم يقعدوا لصنع الجن لهم ولم يكسلوا لتنوب الريح عنهم، وإنما انطلقوا بهذه التيسيرات يسخرونها بأمر الله ويستمدونها بقدرته.

(٤) إن التجرد لله والعمل بشريعته وإخلاص القلب له هي الوسائل التي تمكن الإنسان في الأرض والله – سبحانه – لا يمنح تأييده للفاجرين ولا للفاسدين.

(٥) إن سليمان ومن قبله داود ليس لهما تأثير مباشر في الكون وإنما التأثير والفاعلية لله، ولذا يحرص التعبير القرآني على أن يسند التأثير كله لله وهذه اللمحة لها أثر كبير في إلزام الإنسان حد نفسه حتى لا يتجاوز حجمه، إذ إنه ليس لأحد بالغ ما بلغ أن يزعم لنفسه شيئًا من الأمر.

(٦) تزدان تلك الحضارة بأنماط فخمة من وسائل الجمال والزينة التي لا تستطيع حضارة البشر بالغةً ما بلغت أن ترتقي إليها فهي حضارة ذوق وفن وجمال فيها النحت متمثلًا في التماثيل والهياكل وفيها البناء متمثلًا في المحاريب والمعابد وفيها دقة الصنع متمثلةً في الجفان والقدور الراسيات، وفيها الزينة متمثلةً في الخيول الصافنات، وفيها الزخرفة متمثلةً في الترصيع بالدر والياقوت، وما شئت من الحلي واللآلي والصدف وناهيك بالصرح الممرد من القوارير[1].

**من مظاهر التصور الديني:**

إنه استُقْدِم بعض العلماء ليقرأ البخاري (صحيح البخاري) في سفن الأسطول التركي حتى تصل البركة، وكان تعليق بعض الظرفاء أن الأسطول يسير بالبخار لا بالبخاري.

**ومن الأحداث الجديرة بالنظر أن:**

أحمد عرابي باشا أقام مع رجاله قبيل موقعة (التل الكبير) حفل ذكر (رقص ديني بالتعبير الصريح) كي ينصره الله على الإنجليز، وكانت النتيجة أن انهزم بعد معركة استغرقت ثلث ساعة. كان التصور الديني أن تلاوة الأوراد من الكتاب والسنة أو تأليف المشايخ تصنع العجائب، وقد صنعت فعلًا صدعًا هائلًا في تاريخ كبير[2].

«إننا هنا نلتقي باثنين من عباد الله المصطفين، داود وسليمان عليهما السلام، وقد

---

١- قيم حضارية في القرآن الكريم، الشيخ توفيق سبع، ١/ ١٨٥، ط دار المنار وما بعدها بدون تاريخ.

٢- الدعوة الإسلامية، الغزالي، ص٥٧، ط وهبة، الثانية، ١٤٠٥هـ.

سُخِّرت لهما قوى الطبيعة الهائلة والطاقات الغريبة التي لا يحدها جدار زماني أو حاجز مكاني، سخرت جميعًا لكي تعمل تحت إمرة الإنسان المؤمن المسؤول، الجياد، والطير، الحديد، الريح، القطر (النفط) في عدد، فسار من مساحات العمل (التقني) التطبيقي: صناعةً وعمرانًا وبناءً وفنونًا.

**وتثير عجبنا في ميادين هذا النشاط تلك الإشارات الواضحة إلى الحديد والوقود اللذين قد تبين في قرننا العشرين هذا كم هما ضروريان أساسيان للحضارة المعاصرة ولكل حضارة، تريد أن تعمر وتصنع وتبني وتتفنن وتطبق، ويثير عجبنا كذلك أن الله سبحانه وتعالى لم يمنح الحديد فحسب لداود، ولكنه يعلمه كيف يلينه، فبدون هذا لن تكون ثمة فائدة (صناعية) لهذا الخام الخطير.**

إننا هنا نلتقي بالإنسان المؤمن بل النبي الذي يبلغ من فهمه عن الله وشكره لنعمائه أن يمنحه خالقه هذا القدر الكبير من القوى المذكورة، ويكشف له عن هذه الطاقات الطبيعية الهائلة من أجل أن يبني ويعمر ويتقن ويبدع ويبتكر، ويتقدم بالحياة صدعًا على طريق الخلافة المسؤولة المؤمنة الراشدة التي لا ينحرف بها هذا النعيم الكبير عن التزام الموقع الصحيح في العلاقة المطلوبة بين الله والإنسان[1].

**منهج سيدنا يوسف في مواجهة المشكلة:**

نلاحظ من خلال الآيات قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ ..... ﴾ يوسف: (٤٢–٥٦) أنه كانت مرحلتان:

**١– مرحلة خصب وإنتاج:**

وقد دفع يوسف فيها إلى العمل بشدة ومواصلة الزرع مع ترشيد الاستهلاك وعدم الإسراف في المشاكل والعمل على بقاء مخزون احتياطي من الحبوب حتى يستطيع أن يواجه به السنين القادمة وأن يتم حفظ هذا المخزون بطريقة علمية وهي بقاؤه في سنبله حتى لا يأكله السوس أو العفن.

وهذا التصرف هو عين التخطيط السليم لهذه المرحلة (كمرحلة الإنتاج بلغة علم الاقتصاد الآن).

---

١– العقل المسلم والرؤية الحضارية، د. عماد الدين خليل، ص٤٨، دار الحرمين، بدون تاريخ.

**٢- أما المرحلة الثانية:**

فهي مرحلة التوزيع وخصوصًا أيام القحط والمجاعة وقد وصل فيها يوسف إلى قمة العدل ومنتهى الحكمة حيث كان يتم توزيع الحبوب على عدد الأنفس وليس على حسب القدرة الشرائية، والتي تؤدي إلى الاحتكار واستغلال حاجات الناس وخصوصًا في مثل هذه الظروف العصيبة. هـ.[١]

**تعليقًا على طلب يوسف أن يكون وزيرًا على خزائن الأرض:**

يقول الشيخ الغزالي: نلحظ أن يوسف عرض الخصائص النفسية والعلمية التي ترشحه للمنصب، فهو ليس عبدًا عفيفًا فقط بل صاحب خبرة في شؤون المال يعرف كيف وكيف يوزعه.

وقد أباح لنفسه طلب المنصب لأنه ليس هناك من هو أحق به منه، ومن المصلحة العامة أن تُوضَع الأمور في يد القوي الأمين بدل أن تُوضَع في يد عاجز قليل الخبرة.[٢]

**ويعلق الشيخ البهي الخولي – رحمه الله – على طلب سيدنا يوسف من ملك مصر أن يجعله على خزائن الأرض بقوله: هل تُرَاه يطلب الإشراف على شؤون التموين بالأسلوب الدنس الذي يلجأ إليه كل مستضعف مستعد لشهوة الظهور والغرور؟ إنك لا ترى إلا العزة الكاملة في الطلب.**

**عزة من يطلب لغيره لا لنفسه، بل عزة من يتقدم لأداء الواجب والإنقاذ من خطر يوشك أن ينزل.**

وإن روح العزة ليطالعك في صيغة الأمر من قوله – عليه السلام – : ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِ﴾، بينما يتأدب سليمان مع الله في الطلب: ﴿رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓ﴾. ولعل لنا في قصة يوسف – عليه السلام – درسًا يعلمنا الدستور الذي تُطْلَب به الوظائف والمناصب؛ فهي تُطْلَب بالعزة لا بالذلة، وتُطْلَب لأداء واجب وسداد ثغرة لا حشرًا بدون موجب وإسرافًا في المال العام، وتُطْلَب بحق الكفاءة والموهبة الصالحة لا بحق المحسوبية ووساطة الوسطاء والوسيطات ألا تراه عليه يقول إثباتًا لكفاءته في غير

---

١- د. حلمي عبد المنعم صابر، الحل الإسلامي لمشكلة الغذاء، ص ٣٦٥، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣م.

٢- الشيخ محمد الغزالي في التفسير الموضوعي، ٢/ ٣٤.

زهو – طبعًا – ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾.

ولقد أخذ يوسف حظه من الملك؛ فدفع الله به شدةً عن الناس وكشف غمًّا وكروبًا كثيرةً؛ فكانت مصر في أشد أيام قحطها وجدبها بمنجاة من خطر المجاعة المهلكة، أما هو فلم يفتنه المنصب عن ربه، ولم يعلق الترف بذرة من قلبه وظلت بصيرته تهفو إلى ما عنده من مقامات الإحسان، فيناجي ربه بمعنى مناجاة سليمان: ﴿رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾.[1]

إن الله أباح للبشر كافةً ارتفاق الأرض والمشي في مناكبها واستخراج كنوزها يستوي في ذلك المؤمنون والكافرون فما الحال إذا نشط الكافرون وكسل المؤمنون؟ ما الحال إذا كانت أيدي غيرنا لبقةً في الفلاحة والصناعة والتجارة والإدارة، وكنا نحن مكتوفي الأيدي في تلك الميادين كلها؟

أينتصر الإيمان بهذا التبلد العقلي والتماوت المادي والأدبي؟ أم يدركه الخذلان في كل موقعة؟ إن الواقع الأليم يتكلم فلنسكت نحن. كم يغيظني أن يُكلف الأنبياء بصناعات الحديد وأن يُطالبوا بتجويد آلات الحرب وإتقانها، وأن يتعلم الصالحون الرمي وإصابة الهدف وأن يكونوا خبراء ببناء الحصون وتشييد الاستحكامات العسكرية ... إلخ، بينما صالحونا لا يدرون عن ذلك شيئًا.

إن إصابة الأهداف من الأرض إلى الأرض أو من الأرض إلى الجو أو من البحر إلى البحر ... إلخ؛ تتطلب علومًا كثيرةً من طبقات الأرض إلى طبقات الجو ومن الهندسة إلى الطبيعة والكيمياء والفلك. أكان داود يعبث عندما قِيل له: ﴿ٱعۡمَلۡ سَٰبِغَٰتٖ وَقَدِّرۡ فِي ٱلسَّرۡدِ﴾. سبأ: ١١

أكان ذو القرنين يعبث عندما أوقد الأفران وصهر المعادن وأقام خطًّا من الحصون المنيعة؟

---

١- تذكرة الدعاة، الشيخ البهي الخولي، ص٢٤٤/ ٢٤٥، ط دار الاتحاد الإسلامي العالمي، الثانية، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

أكان محمد الفاتح يعبث عندما سير السفن على اليابسة وأكمل الحصار على خصومه؟

إن الذين يحسبون علوم الكون والحياة علومًا طفيليةً على دين الله ويظنون العبادة حمل السبح وتحريك حباتها بكلمات جوفاء أناس لا وزن لهم.

هذا النهج من الحياة ليس بإسلامي، ولسنا ننكره فقط لما فيه من غلو يجافي السنة كما يعرف جمهور العلماء، ولكنا ننكره لما يشعر به من أن الطاعة هي إدمان الذكر والقراءة والصلاة على هذا النحو المكرر الممل، أتحسب القاضي المنشغل بالفصل في الخصومات حين يسهر على تحضير قضاياه أقل رضاءً لله من هذا العاكف على قراءة كتابه؟ أتحسب المدرس المنشغل بحرب الجهل حين يسهر على تحضير دروسه أدنى حالًا من هذا الذاكر العاكف؟ لا بل كلاهما أقرب إلى الحق.

وأدنى إلى الرشد بل أن النائم المستغرق في منامه لطول ما كدح سحابة نهاره مجاهد ينام ويصحو بعين الله ما دام يحيا نظيف القلب حي الضمير ... إن الخطأ في فهم معنى العبادة مال بحضارتنا وثقافتنا عن السداد، وجعلنا نفهم الجهل علمًا والعلم جهلًا، وكان لذلك أثره الحاسم فيما أصاب أمتنا من انهيار» أ. هـ.[1]

**موسى عليه السلام والعبد الصالح:**

قصة أن الخضر – رضي الله عنه – حي يُرزق يسبح في الأرض قصة تافهة وسخيفة، ومع ذلك فإن أعدادًا من المتصوفة تتعصب لها وتجادل دونها كأنها من معالم الدين.[2]

**ذو القرنين:**

اختلف المفسرون في شخصية هذا الرجل، والقول الشائع المشهور أنه الإسكندر المقدوني، وهذا القول الذي انتصر له الإمام الرازي وذهب إليه عامة علماء الإسلام، ولكنه قول لا وجه له، لأن الإسكندر المقدوني لا تتحقق فيه الصفات التي ذكرها القرآن في وصف ذي القرنين من اتصافه بالإيمان بالله وخشيته، والعدل والرأفة بالمفتوحين، وبناء السد العظيم.

وأرجح أن هذا القول نشأ من عدم الاطلاع على تاريخ الإسكندر وسيرته في الحروب، وذهب بعض الفضلاء المعاصرين «أبو الكلام آزاد» إلى أنه الشخص الذي يسميه اليونان

---

١- انظر: ليس من الإسلام، الشيخ الغزالي، ص١٩٨، ١٩٩، ط دار الكتب الإسلامية الخامسة، ١٤٠٣هـ.

٢- انظر: الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر للشيخ محمد الغزالي، ص٥٧، ط وهبة الثانية، ١٤٠٥هـ.

«سائرس» وتسميه اليهودي «خورس» ويذكره المؤرخون العرب بـ «كيخسرو».

ونحن نوافق على ما كتبه الأستاذ الشهيد/ سيد قطب في هذا المقام ويحسن بنا أن ننقله حرفيًّا قال رحمه الله: «إن النص لا يذكر شيئًا عن شخصية ذي القرنين ولا عن زمانه أو مكانه، وهذه هي السنة المطردة في قصص القرآن فالتسجيل التاريخي ليس هو المقصود هو العبرة المستفادة من القصة والعبرة تتحقق بدون حاجة إلى تحديد الزمان والمكان في أغلب الأحيان».[1]

وهذه سيرة الإنسان القوي العليم الذي يسخر القوى الكونية والمادية ويملك أعظم مقدار من الأسباب والوسائل، ويوسع فتوحه ومغامراته وهو في كل ذلك وفي أوج قوته وسلطته وسيادته، وتسخيره للقوى والأسباب مؤمن بربه خاضع له مؤمن بالآخرة ساع إليها مقر بضعفه رحيم بالإنسانية وبالأمم الضعيفة حام للحق، يستخدم كل قوته وجهده ومواهبه وجميع وسائله وذخائره لخدمة الإنسانية وتكوين المجتمع الصالح وإعلاء كلمة الله وإخراج الناس من الظلمات إلى النور ومن عبادة الناس والمادة إلى عبادة الله.

**(سيرة مثلها سليمان بن داود – عليهما السلام – في عصره ومثلها ذو القرنين في عصره ومثلهما الخلفاء الراشدون والأئمة المهتدون في عصورهم).**[2]

يقول الأستاذ/ عمر عيد حسنة عن (ذي القرنين):

«قدم القرآن الكريم (ذي القرنين) أنموذجًا متجسدًا لربط الأسباب بالمسببات والمقدمات بالنتائج، واعتبر ذلك مقدمةً لا بد منها للنهوض والإنجاز الحضاري، وبذلك لم يكتف القرآن بتأكيد موضوع السنة نظريًّا فذو القرنين أتاه الله من كل شيء سببًا فأتبع سببًا وكان له التمكين في الأرض لأنه عرف السنة وانضبط بها.

سار في الأرض وكانت مساحة رحلته من مشرق الشمس إلى مغربها، وتعرف من خلال هذا السير إلى أسباب العجز الحضاري، والتحديات والمعاناة التي تواجه البشر، وأيقن بضرورة توفير الظروف والشروط التي تكسبهم المتعة؛ فكان أشبه بالمهندس الذي

١- الصراع بين الإيمان والمادية، ص١٠١، ١٠٢، ١٠٣، وما بعدها، تأملات في سورة الكهف، ط دار القلم، الرابعة، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

٢- الصراع بين الإيمان والمادية، ص١٠٩، ١١٠، للشيخ أبو الحسن الندوي.

عرف أسباب التردي ووسائل التمكين في الأرض، ووضع الخطط، وأشرك الأيدي العاملة، واستحضر المواد المطلوبة لإتمام عملية الإنجاز.[1]

**يقول الشيخ الغزالي معلقًا على قصة ذي القرنين:**

«إنني عندما أقرأ خبر هذا الرجل أشعر بالحزن لأن الخبرة الفنية التي أبداها لا تعرف اليوم بين المسلمين، لقد انفرد الأجانب بها وأمسوا الخبراء المتخصصين فيها.

إن المهارة في شؤون الحياة صارت لديهم ملكةً راسخةً، والغريب أننا بدل أن نتعلم الإبداع في شؤون الدنيا تعلمنا الابتداع في شؤون الدين وأتينا بأمور ما أنزل الله بها من سلطان».

وكان من وراء ذلك فوضى عقلية وخلقية أخرتنا في معاشنا ومعادنا.[2]

**ويقول أيضًا:**

«هذا العمل فيما يتصور الناس ليس عمل عباد الله الصالحين ... لماذا؟

لأن عمل عباد الله الصالحين في تصور الأغبياء أن يضعوا مسبحةً بين أيديهم ثم يبدؤون العبث بحياتها، ويحسبون ذلك ذكرًا لله، وهو نسيان لله، ليس هذا تدينًا».[3]

***

١- الأستاذ عمر عيد حسنة، مراجعات في الفكر والدعوة والحركة، ص١٦، ١٧٢، ط المعهد العالي للفكر، ١٩٩١م، الطبعة الأولى.

٢- التفسير الموضوعي، ٢/ ٨٨، دار الشروق الأولى، ١٩٩٣.

٣- انظر: خطب الشيخ محمد الغزالي، ٣/ ٥٦، ط دار الاعتصام، ١٩٨٩م.